

المسرح هو المهم وليس الملابس الرسمية

تقول الكاتبة الفرنسية الشهيرة «فرانسواز ساجان» «إن السعادة لا يمكن إحداثها ولا يمكن التنبؤ بها ، وليس هناك في موضوع السعادة شيء مؤكد ، إلا أن يكون المال باعتباره أساساً للسعادة» .

ولكن المال وإن كان أساساً للسعادة ، إلا أنه ليس هو السعادة ، فالمال يمكن أن يقضى على السعادة ، ويحيل العالم إلى جحيم ، نعم . . الحب يحتاج إلى المال ، والحرية تحتاج إلى المال ، والسعادة تحتاج إلى المال ، ولكن الحب والحرية والسعادة إن استسلمت للمال ، تحولت إلى نقيضها ، فأصبح الحب حرباً ، والحرية عبودية ، والسعادة تعاسة وشقاء .

فإذا كان المال هو إله العصر الحديث ، فهو الإله الذي ينبغي ألا نصلي له ، ولكن نصلي من أجله ، فالمال شيء ، ولكنه ليس كل شيء .

هذا هو المضمون العام الذي أدار عليه الكاتب المسرحي الشاب «بييج إسماعيل» مسرحيته الجديدة التي سماها «الدخول بالملابس الرسمية» والتي حاول من خلالها أن يطرح قضية من أخرج القضايا التي تفرق ضمير الشباب المعاصر ، ألا وهي قضية الحصول على المال من أجل تحقيق السعادة ، دوناً مساس بكرامة

الإنسان ، وشرف الإنسان ، ومتى يصبح الحصول على المال عملاً غير مشروع ، عندما يحتوى على كل ما هو مضاد لقيم الإنسان ومبادئه ومثله العليا .
وصحيح كما يقول المؤلف أن الغاية تبرر الوسيلة ، أو بعبارة أصح إذا كانت الغاية تبرر الوسيلة ، فما الذى يبرر الغاية نفسها ؟ ولكن الصحيح أن الذى يبرر الغاية هو مدى مشروعيتها ، ومدى تأكيدها لكل ما حصل عليه الإنسان خلال تاريخه الطويل من قيم ومثل ، اللهم إلا إذا كانت هناك فضيلة ضد الخير ، وقيمة ضد الحق ، ومثال ضد الجمال .

ولكى يخرج المؤلف من التجريد النظرى إلى التجسيد الدرامى ، أعنى لكى يصب فكره الفلسفى فى قالب مسرحى ، عمد إلى إطار عصرى بأكمله ، تتحرك فى داخله الشخصيات التى اختارها بذكاء وعناية ، لكى تترجم بفكرها سلوكها ، ولكى ترمز بسلوكها إلى هذه المحاور الرئيسية التى أدار عليها المسرحية ، أعنى المال فى مواجهة السعادة ، ثم المال فى مواجهة الحب ، وأخيراً المال فى مواجهة الحرية .
أما المال فى مواجهة السعادة فتتمثله العلاقة الثنائية بين بطله المسرحى « ممتاز » وبين « نشوى » ، المليونيرة العجوز ، وأما المال فى مواجهة الحب ، فتتمثله العلاقة الثنائية بين « ممتاز » هذا وبين « سعيدة » زوجته الجميلة الشابة ، وأما المال فى مواجهة الحرية فتتمثله العلاقة الثنائية بين « ممتاز » وبين صديقه « عبد الظاهر » . . .
الفقر الغلبان ، الذى عاش حياته لا يملك شيئاً ولا يطمع فى شيء ، إلا أن يكون هو . . . الإنسان ، الذى لا يركع لوثن من الأوثان ، حتى ولو كان وثن الحب أو وثن الحرية أو وثن السعادة . .

أما « ممتاز » هذا فهو شاب وسيم الطلعة ، ذكى العقل ، خفيف الظل ، تخرج فى الجامعة وفى قسم الفلسفة بالذات ، لما فى ذلك من إيماء بتفكيره النظرى المجرد ،

البعيد عن الانغماس في واقع الحياة العملية ، ومشكلات المعيشة اليومية ، فهو دائم التفكير في الغايات دون الوسائل ، وفي المجردات دون الماديات ، يدبر ظهره لأضواء المدينة ، ولعب الحضارة ، وضوء العصر ، ويعكف على التفكير في الكتابة والتأليف ، مكتفياً براتبه الشهري الضئيل ، الذي يتقاضاه كخريج جامعي ، وكموظف بالحكومة عن طريق القوى العاملة .

وعلى طرف النقيض منه تماماً نجىء زوجته « سعيدة » الشابة الجميلة المتطلعة التي تنهرها أضواء المدينة ، من سينات ومسارح وملاه ، كما تنهرها لعب الحضارة من خلطات وغسالات وثلاجات ، ومكانس كهربائية وتليفزيونات ملونة ، وأجهزة التسجيل ، فضلاً عما يبهرها من ضوء العصر ، فهي تحب السهر ، وتحب الرقص ، وتحب حفلات العشاء وغير العشاء ، ولهذا جميعه ، فهي لا تكف عن مطالبة بالمال ، المال الذي يجعلها تعيش ، ويجعلها تحس بالحياة ، فجباتها بدون المال ، « صفر على الشئال » ، أوهى على حد تعبيرها . . تعيش تحت الصفر ! ويدفعه الشجار الدائر بينهما باستمرار ، إلى قبول وظيفة مساعد طباطخ في (فيلا) السيدة « نشوى » صاحبة المليونين من الجنيهات ، وهي الوظيفة التي يتقاضى منها أضعاف أضعاف مرتبه كخريج جامعي وكموظف حكومي ، عساه بذلك أن يحصل على المال الذي يحقق له ولزوجته السعادة ، وذلك على العكس تماماً من السيدة « نشوى » ، التي تبعثر المال طلباً للسعادة ، ولكن المال لا يزيد لها إلا نعاسة ، تأكل فلا تشعر إلا بالجوع ، تشرب فلا تشعر إلا بالظمأ ، تسهر فلا تشعر إلا بالفراغ ، تقيم الحفلات فلا تشعر إلا بالوحدة ، وهي في الواقع لم تكن ترغب في مساعد طباطخ ، عندما أعلنت عن هذه الوظيفة في (فيلتها) ، واشترطت لها شروطاً من بينها أن يكون شاغلها وسيماً فارح الطول ، خفيف الظل ، يجيد لغتين

على الأقل، ويتفرغ لها كل التفرغ، وإنما كانت في حاجة إلى رجل يشاركها حياتها الطويلة والعريضة والعميقة ، دون أن يكون لديه ذلك الطمع الذي لمسته في كل من حاول الاقتراب منها ، أو الاقتران بها ، وبخاصة زوجها الأخير الذي انفصلت عنه منذ خمس سنوات ، بعد زواج فاشل .

وتكون النتيجة ، بطبيعة الحال ، هي نجاح « ممتاز » في الامتحان ، وبدرجة ممتاز، هذا على الرغم من أنه لا يعرف في « الطبخ » شيئاً ، وإن عرف في (الطبخ) أشياء ، المهم أنه ظهر بمظهر الإنسان (المتمكن) الذي تبحث عنه المليونيرة (نشوى هانم) ، والذي ما تلبث أن تتقدم هي لخطبته ، عارضة عليه الزواج ، وما إن يوافق (ممتاز) على طلبها ليده حتى يصبح زوج الهانم ، ومدير أعمالها ، ورجل (الفلا) ، ولا يقضيان شهر عسل واحد بل ثلاثة شهور ، في الخارج ، في عواصم أوروبا ، تعود بعدها (نشوى هانم) ، وهي حامل في ثلاثة أشهر ، ويعود معها (ممتاز بك) وهو سيد الموقف .

ولكن (سعيدة) زوجة (ممتاز) تبحث عنه في كل مكان ، حتى تهتدي إلى عنوانه في (الفلا) التي يدعوها إلى العمل فيها لكي تكون إلى جواره ، ولكنها سرعان ما تكتشف زواجه بالمليونيرة ، وإن كان « ممتاز » يشك في أنها قد غدت حاملاً ، ويحاول أن يقنع « سعيدة » بأنه مجرد حمل كاذب ، فيدعو صديقه « عبد الظاهر » الذي يعمل ممرضاً بعيادة أحد الأطباء ، لكي يقوم بدور الطبيب الذي يوهم « نشوى هانم » بأنها حامل بالفعل وعلى وشك الوضع ، ويصارع « سعيدة » بأن حمل « نشوى هانم » حمل كاذب . ولكن « عبد الظاهر » الفقير الغلبان ، الطبيب القلب ، يختلط عليه الأمر ، فيتصرف على عكس ما كان يريد « ممتاز بك » هذا في الوقت الذي تشك نشوى هانم في أن ثمة علاقة خفية تربط

ما بين سعيدة وممتاز ، بعد أن جاءت للعمل في (الفيلا) مربية للمولود الجديد .
ولكن تقطع « نشوى هانم » شكها باليقين ، في علاقة « سعيدة » بممتاز ،
تنهر إعجاب « عبد الظاهر » « بسعيدة » ومحاولة أن يطارحها الغرام ، لكي تعرض
عليه فكرة الزواج بها ، ويستجيب « عبد الظاهر » للفكرة على الفور ، وتتردد
« سعيدة » في بادئ الأمر ، ثم تبدى موافقتها إمعاناً في الانتقام من « ممتاز » .
وما إن يذهب « عبد الظاهر » لإحضار المأذون ، حتى يكون قد أسقط في يد
« ممتاز » . الذي لا يملك إلا أن يصارح « سعيدة » بحقيقة الأمر ، محملاً إياها
مسئولية هذا الموقف كله ، بسبب إلحاحها المستمر في طلب المال ، كما يصارح
« نشوى هانم » بحقيقة الأمر ، محملاً نفسه مسؤولية كل ما حدث .

وهنا لا تملك « نشوى هانم » إلا أن تطلب منه أن يعود إلى زوجته ، وأن
يغادرا « الفيلا » معاً ، في الوقت الذي يعود فيه « عبد الظاهر » ليجد الموقف وقد
انقلب رأساً على عقب ، فيلقن صديقه « ممتاز » درساً عميقاً وقاسياً في الأخلاق ،
وكيف أن من لعب بالناس ، لعبت به الناس ، وذلك لأن الكذب بلا رجلين
ولا يدين ، ولا أعضاء على الإطلاق ، ولا يهم أن تدخله بالملابس الرسمية ، لأنه
لا بد وأن ينكشف في نهاية المطاف .

وأخيراً تتجه « نشوى هانم » إلى الجمهور ، كاسرة ما بينها وبينه من حائط
رابع ، لكي تعلن عن حملها الكاذب ، وعن تعاسفها الحقيقية . برغم ما تملكه من
مال ، وما يحيط بها من خدم ، وما تدعو إليه من حفلات ، فكلها ملابس رسمية
لا بد منها للدخول إلى المجتمع ، برغم ما بداخل هذه الملابس من زيف وخداع ،
فالسعادة الحقيقية هي أن يكون الإنسان عارياً من كل شيء ، إلا من جلده
كإنسان .

وبصرف النظر عما في أحداث هذه الكوميديا الاجتماعية من لا منطقية ، سواء في حبكه المواقف أو في رسم الشخصيات ، كأن يستدعى « ممتاز » زوجته « سعيدة » لكي تعيش معه في (فيلا) « نشوى هانم » ، التي هي زوجته ، وكأن تقبل « سعيدة » هذا الموقف ، لمجرد التأكد من زواج « ممتاز » ، بنشوى هانم ، وكأن تستوظفها « نشوى هانم » مربية للمولود الجديد ، الذي لم يأت بعد ، والذي لن يأتي أبداً . بصرف النظر عن هذا جميعه ، فإن المسرحية تبدو غريبة على جونا المصرى ، أجنبية على حياتنا المصرية ، والأغلب أنها مقتبسة من تراث الكوميديا الغربية بعامة ، (والفودفيل) الفرنسى بوجه خاص .

وهذا لا يعيب المؤلف في شيء طالما كان الاقتباس أو الإعداد أو المصير ، هو الطوفان الذي أغرق مسرحنا حتى غرق فيه تماماً ، وعشياً نحاول أن نلقى إليه بأطواق النجاة ، ولكن الذي يعاب عليه حقاً هو عدم النص على ذلك صراحة في الإعلان . خاصة وأن هذا لا يقلل حقيقة من قدرة « بهيج إسماعيل » على كتابة المسرحية الكوميدية ، ومقدرته على خلق المواقف ، وإدارة الحوار ، ورسم الشخصيات ، فضلاً عن تميزه بما لا يمتاز به الكثيرون ، بالثقافة الفلسفية الرفيعة ، والمضمون الفكرى الخاد ، والحماسة لتقديم نوعية كوميدية نظيفة تخلو من الإسفاف وتعف عن الابتذال .

ويجىء « محنون » الكوميديا المصرية المخرج « السيد راضى » لكي يستخدم إمكانات الكوميدى شو ، ومسرح الأندلس ، حيث الهواء الطلق ، ووشوشة مياه النيل ، ونسيم هواء الجزيرة ، وظلال عبقرية المكان ، في تقديم كوميدى نظيفة ترقى على الكثير من كوميديات المسرح التجارى . وربما كان أروع ما في تجسيده للنص ، هو ذلك الديكور المعارى الجميل والأنيق ، الذى صمم بذكاء ، ونفذ

بجاليات ، واستخدم بوعى ، لكى يصب فيه النص الكوميدى ، ولكى يضع الحركة البشرية كلها فى إطار من الأنافة والجمال .

وعلى الرغم من جاليات اللوحة الاستعراضية الراقصة ، التى استهل بها المسرحية فإنها لا تكاد تنتمى إلى النص المسرحى من قريب أو بعيد ، كانت شيئاً خارجاً على العمل تماماً ، يمكن مشاهدته دون أن تكون له أية علاقة بالمسرحية ، وإذا كان قد استخدمه فيها يشبه (البرولوج) أو المقدمة المسرحية ، فقد كانت الخاتمة أو ما يمكن تسميته (بالابيلوج) شيئاً خارجاً على النص كذلك ، فالخطبة التى ألقها « نشوى » فى نهاية المسرحية ، متجهة بها إلى الجمهور ، بدت وكأنها كسر للحائط الرابع ، فجأة وبلا مبرر ، برغم وجود هذا الحائط طوال المسرحية ، باعتبارها مسرحية واقعية تقليدية .

وما دمتنا قد وصفنا المسرحية بالواقعية التقليدية ، فى تصورى أيضاً تأسيساً على هذا الوصف ، أن الفاصل الغنائى الثانى (الريبستاتيف) بين « نشوى هانم » ، « سهر البابلى » ، وبين « ممتاز » ، « أبوبكر عزت » لم يكن من نسيج العمل ، كان نشازاً هو الآخر ، فى الجو المسرحى الكوميدى العام .

على أن هذا جميعه لا يقلل من براعة « السيد راضى » فى ضبط إيقاع الحركة وإيقاع الحوار ، بحيث جاء الأداء التمثيلى فى عمومه منسجماً فى وحدة أدائية متكاملة ، خاصة فوق خشبة ذلك المسرح الكبير . . مسرح حديقة الأندلس ، الذى عرف المخرج كيف يملأ فراغه باستمرار ، وكيف يشعرنا بما يدور فوقه من حركة وحياة . وكان المخرج موفقاً فى اختيار فريق الممثلين الذى تفوق فى تجسيد هذا العرض المسرحى ، فى طليعتهم « سهر البابلى » . . التى عرفت كيف تنقصر هذا الدور ، وأن تؤديه بأستاذية ، وكيف تخرج مزجاً فنياً دقيقاً بين لحظات الأداء التراجيضى

الحزين ، دونما إخلال بالجو الكوميدي العام .

كذلك عرف « أبو بكر عزت » كيف يتحرك داخل دوره ، بحضور كوميدي أخذ ، وذكاء حوارى واضح ، وقدرة على الافتعال واصطناع الافتعال ، فضلا عن بنائه الفيزيقي الملائم لمواصفات هذا الدور ، والذي شكل مع (سهر البابلي) (دويتو) مسرحى فيه الندية من ناحية ، والتكاملية من ناحية أخرى .

أما « إسعاد يونس » فى دور « سعيدة » ، فقد كانت بحق هى مفاجأة العرض المسرحى ، حيث استطاعت أن تؤدى دورها بنخفة ظل حقيقية ، وحضور قوى فوق المسرح ، كانت بمثابة نسيم كوميدي جديد يهب على حياتنا المسرحية ، ويمثل إضافة حقيقية لمثلثات الكوميديا الجديدة ، التى تجمع بين بساطة الحركة ، وتلقائية الأداء ، وطبيعية التعبير المسرحى .

وبرغم ثقتى فى موهبة الممثل الصاعد (سامى فهمى) وقدرته على العطاء المسرحى الوفير ، فإننى لازلت أتساءل : لماذا يظل حبيس دوره المشهور « شاكر فضله » ، إنه حتى هذا الدور لم يكده يخرج عن « شاكر فضله » سواء فى ملابسه ، أو فى مظهره العام ، أو فى طريقته « إياها » فى الأداء والتعبير ، كم أتمنى له أن يخرج من إطار هذا الدور إلى آفاق أخرى أرحب وأوسع .

كذلك لم أجد أى مبرر لاستدعاء المتلوجست القديمة « ثريا حلمى » فى دور الخادمة ، إنه لا جسمها ولا صوتها ولا عمرها ، مما يعد يسمح لها بأداء مثل هذه الأدوار ، كما أنه ليس ثمة مبرر على الإطلاق لاستدعاء الماضى ومحاولة إحياء التراث !

عموماً . . ليس المهم فى هذه المسرحية أن يكون الدخول إليها بالملابس الرسمية أو غير الرسمية ، وإنما الأهم هو المسرح !!